﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧﴾ [البقرة: 87]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَعدَ بَيانِ جِناياتِ بَني إسْرائيلَ، وما اقْتَرفُوهُ مِنْ مَعاصٍ وكَبائرَ في حَقِّ أنفُسِهم، شَرعَتِ الآياتُ في بَيان الحُججِ التي قامَتْ عَليْهِم[1]، وأنَّ ما قاموا بِهِ مِنْ تلكَ الفَظاعاتِ إنّما كان بعد البيانِ الكاشِفِ المُتتابِعِ، ابْتِداءً من لَدُنْ مُوسى إلى عيسى وما بَيْنَهما مِنَ الرُّسُل عليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ، فلم يُؤمِنوا ولم يَمْتَثِلوا للرُّسُل بسببِ تَكبُّرِهم وطغيانِهم[2].

ثم إنَّ هذه الآيةَ مهَّدَتْ لِلْإنْحَاءِ عَلَى بَني إسرائيلَ في مُقَابَلَتِهِمْ لدَعوةِ الرّسولِ محمد ﷺ الّآتي ذِكْرُهَا في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ﴾ [البقرة: 88]، لأنَّها أنْحَت عليهم بسوءِ مُقابَلَتِهم لِرُسُلِ اللّهِ بعدَ موسى عليه السلام مثل مقابلتهم السّيّئة لعيسى ابنِ مَريمَ عليه السلام، فلم يبقَ إلّا الكلامُ على فِعالِهم مع رسولِ اللّهِ محمَّدٍ ﷺ[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: على وزنِ فِعالٍ مِنَ الكَتْبِ، وأصْلُهُ: ضمُّ الشَّيءِ إلى الشَّيء[4].

ويُطلق الكتابُ على الخطِّ والكتابةِ، كما قال اللّه تعالى عن عِيسَى عليه السلام: ﴿وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾[5] [المائدة: 110].

ويُطلق مُرادًا به المكتوبُ، فيكون مِن إطلاقِ المصدرِ مُرادًا به اسمُ المفعول، كقَوْلِهم:

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/126.
(2) تفسير الرّاغب: 1/255.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/592.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كتب).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/223، ونصر الهُورِينيّ، المطالع النَّصْرِيَّة، ص: 41.

فِراشٌ يعنى: مفروش، وغِراس بمعنى: مَغْروس، ولِباس بمعنى: مَلْبوس، ثم أُطْلِقَ على الصَّحيفة مَعَ ما كُتِبَ فِيها[1].

ويأتي (الكِتابُ) في القرآن الكريم على أحدَ عشَرَ وَجْهًا[2]، ويقصد به هنا التّوراةُ[3].

2) ﴿وَقَفَّيْنَا﴾: أصله من (قَفَو) أو (قَفِي)، فالْقَافُ وَالْفَاءُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ تدور معانيها على: إِتْبَاعِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ، يُقالُ: قَفَا يَقْفُو قَفْوًا، وَقَفَّيْتُ فُلَانًا بِفُلَانٍ، إِذَا أَتْبَعْتَهُ إِيَّاهُ، تَقَفَّيْتُ فُلَانًا بِعَصًا فضَرَبْتُه، واسْتَقْفَيْتُه -كَذَلك-: إذا جِئْتَه مِنْ خَلْف، وسُمِّيَتْ قافِيَةُ الشِّعْر قافِيَةً؛ لِأَنَّهَا تَقْفُو سَائِرَ الكَلَام، أَيْ: تَتْلُوهُ وَتَتْبَعُهُ، وقافِيَةُ الرّأس: مُؤَخَّرُتُهُ، و﴿قَفَّيْنَا﴾: بِمَعْنى: أَتْبَعْنا، يُقال: هذا يَقْفو هَذا؛ أَيْ: يَتْبَعُهُ[4]. وقَفَّيْنا تُفيدُ التَّكثيرَ في الإرسال؛ لأنَّه على وزن فَعّل.

3) ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾: من الأصل (بَيَنَ)، وبَانَ الشَّيْءُ وَأَبَانَ إِذَا اتَّضَحَ وَانْكَشَفَ. وَفُلَانٌ أَبْيَنُ مِنْ فُلَانٍ؛ أَيْ أَوْضَحُ كَلَامًا مِنْهُ، وتأتي البيِّنَةُ بِمَعْنى: الأمْرِ الواضِح، وبِمَعْنى: الحُجّة؛ لأنَّ بها يَنْكَشِفُ الحقُّ ويتّضِحُ، والبَيّنَةُ: الدّلالة الواضِحَةُ؛ عَقْلِيَّةً كانَتْ أو حِسِّيّةً[5]، فالبيّنة لا يُنازِع فيها مُنازِعٌ لِوُضوحِها، وجَمْعُ البيِّنة: بيِّناتٌ. والمُرادُ بالبيِّنات -هُنا-: مُعْجِزاتُ سَيّدنا عيسى عليه السلام كلُّها ومَعَها الإنجيلُ، "لِأَنَّ الْمُعْجِزَاتِ تُبَيِّنُ صِحَّةَ نُبُوَّتِهِ، كَمَا أَنَّ الإِنْجِيلَ يُبَيِّنُ كَيْفِيَّةَ شَرِيعَتِهِ"[6].

4) ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾: أصل الكلمة (أَيَدَ)، ويَدورُ مَعناه عَلَى: القُوَّةِ وَالحِفْظِ. يُقَالُ: أَيَّدَهُ اللَّهُ، أَيْ: قَوَّاهُ اللَّهُ، وكأنّ مَعنَى اليَدِ مُضَمَّنٌ في (أَيدَ)، فيُقالُ: أَيّدَ فُلانٌ فُلانًا، أي: أَخَذَ مَعَهُ بِيَدِه في الشَّيءِ الذي يُقَوّيه فيه، و(أيّد) بِوزْنِ (فَعَّلَ) تَدلُّ على القُوّة الشَّديدَةِ[7]، فزِيادَةُ اللفْظِ تَدلُّ على زِيادَةِ المَعْنى غالِبًا، فيَكونُ أَيّدَهُ أَبْلَغَ مِنْ قَوّاهُ، ومعنى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾: وَقَوَّيْنَاهُ.

(1) نصر الهُورِينيّ، المطالع النصريّة، ص: 41.
(2) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظِر، ص: 527-526.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/478.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (قفو)، وينظر: الهروي، الغريبين: 5/1571.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والسمين، عمدة الحفاظ: (بين).
(6) الرازي، التّفسير الكبير: 3/595.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (أيد)، وينظر: تراث أبي الحسن الحرالي: 1/238.

5) ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾: هذا التركيبُ الإضافيُّ من إِضَافةِ المَوصُوفِ إلى الصِّفَةِ لِلمُبالغَةِ في الاخْتِصَاصِ[1]، وأَصْلُه الرُّوحُ القُدُسُ، والقُدُس مَصدرٌ على معنى اسم المَفعولِ، أَي الرُّوحُ المُقَدَّسَةُ، ومعنى القُدُسِ: الطَّهَارةُ الدّائمةُ الَّتي لا يَلْحقُها نَجَسٌ ظَاهِرٌ ولا رِجْسٌ باطنٌ، فـ(روحُ القُدُسِ) بمعنى: الرُّوحِ المُطَهَّرةِ، ويُطلقُ هذا التركيبُ وَصْفًا لِجبريلَ عليه السلام، كما جاءَ عن عبدِ اللّهِ بنِ مسعودٍ رضي الله عنه وغيره، وعليه جُمْهورُ المُفَسِّرينَ والمُحَدِّثين[2].

6) ﴿تَهْوَىٰٓ﴾: أصله من (هوي)، ويَدُلُّ عَلَى معنَيَين؛ الأول: الخُلُوّ، والثاني: السُّقُوط، فمن الخُلُوّ: الهَوَاءُ، وهو الفراغ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، سُمِّيَ هواءً لِخُلُوِّهِ، ومن السُّقوطِ: هَوَى الشَّيْءُ يَهْوِي: إذا سَقَطَ، والهَوى: المَيْلُ، ومنهُ مَيْلُ النَّفْسِ إلى الشَّهْوَةِ، وجَمْعُه أَهْواءٌ، ومِنه: أَهْلُ الأَهْواءِ، وسُمِّيَ هَوى النَّفْسِ بذلِكَ؛ لِأنّه يَهْوِي بِصاحِبِه في الدُّنْيا إلى كُلِّ داهِيَةٍ، وفي الآخرة إلى الهَاوِيَةِ[3]. ومعنى: ﴿تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾: توافق أنفسكم وتميل.

7) ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾: من الاستكبار، على وزْنِ اسْتِفْعَالٍ، وأَصْلُ الكَلمةِ من (كَبَرَ)، ويَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الصِّغَرِ، والكَبيرُ والصَّغيرُ من الأَسماءِ المُتَضايِفَةِ، فالشَّيءُ قد يكون صَغيرًا في جَنْبِ شَيْءٍ، وكبيرًا في جَنبِ غَيْرِه، ويُسْتَعمل في الأجْسامِ فيُقالُ: بَيتٌ كَبيرٌ، وفي الأعدادِ مِثْل: عَددٌ كَبير، وفي المَنْزِلةِ كَقَوْلِهِمْ: كَبيرُ القَوْمِ، والاسْتِكبارُ: الامْتِنَاع عَن قَبولِ الحَقِّ مُعانَدةً وتكَبُّرًا، بأنْ يَتَشَبَّعَ بِمَا لَمْ يُعْطَ؛ فيُظْهِرَ من نَفْسِهِ ما لَيْسَ لَه، أو يَرى نَفسَه أكبرَ منْ غَيرِه بِما أَنْعَمَ اللّه عليهِ مِن مالٍ أو جاهٍ، فيستعلي عليهم[4]. وجميعُ ما وَرَدَ في القرآنِ الكَريمِ من الاستكبارِ مَذْمومٌ. ومعنى ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾: تَعَالَيْتُمْ عَنِ الْإِيمَانِ وَتَعَظَّمْتُمْ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/316.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 2/320، وابن حجر، فتح الباري: 8/384.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والزمخشري، أساس البلاغة: (هوي).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (كبر).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ولقد أعطينا موسى التوراة، وأتبعناه برسل من بني إسرائيل على أثره، وأعطينا عيسى ابن مريم الآيات الواضحة المبيِّنةَ لصدقه، كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وقوَّيْناه بالمَلَكِ جبريل عليه السلام، أفكلّما جاءكم - يا بني إسرائيل - رسول بوحي من عند الله بما لا يوافق أهواءكم استكبرتم على الحقِّ، وتعالَيْتُم على رسل الله، ففريقًا كذَّبْتُم إنْ لم تَتَمكَّنوا من قَتْلِه مِثْلَ عيسى ورَسولِ الله محمَّدٍ صلوات الله وسلامُه عليهما، وفريقًا تقتلون إنْ تَهَيَّأَ لَكم قَتْلُهُ مثل زكريا ويَحيى صلواتُ الله وسلامُه عليهما[1].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

أَثَرُ التَّأْكِيدِ فِي بَيَانِ المَعَاني:

تَنْزِيلُ المُخاطَبِ مَنْزِلَةَ المُنْكِرِ؛ زَجْرًا لضعْفِ إيمانِهِ، وتَقْبيحًا لأَعْمالِه

أفادت اللامُ الواقعةُ في جوابِ القَسَمِ المحذوفِ التَّأكيدَ، ومثلُها حَرفُ التَّحقيق (قد)؛ فاجتمعَ تأكيدانِ لمَضمونِ الجُمَلِ المتَعاطِفةِ في الآيةِ؛ فنُزِّلَ المخاطَبون من بني إسرائيل منزلةَ المُنكِرينَ؛ لِمَا يَصْدُرُ عنهم من أفعالٍ تُنافي الإيمانَ بالتَّوراة، وبالرُّسُلِ، فكان مُقتَضى التَّأكيدِ بيانَ حالِهِمُ القَبيحَةِ في المُخالَفةِ بعدَ العلمِ، لاسيَّما بعد إنكارِ الآيةِ السَّابقةِ وتشنيعِها عليهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾، وما جاءَ في هذه الآية من تكذيبِ الرُّسُلِ وقتلِهم؛ فإنَّ مثل هذا لا يصدُرُ إلا عن قلبٍ منكرٍ جاحِدٍ!

فَائِدَةُ ذِكْرِ الظَّرْفِ:

دَفْعُ تَوَهُّمِ حُصولِ التَّقْفِيَةِ في زَمَنِ موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلام

حُذِفَ مفعولُ (قَفَّيْنَا) للعلم به، للإيجازِ في الكلام، ولاقترانِ الضَّميرِ بالظَّرفِ، وهُوَ ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، ولو ذُكِر لَكانَ النَّظْمُ: قَفَّيناه مِنْ بَعدِهِ بالرُّسُل، ففيه تَكْرارٌ مُخِلٌّ، فَضلًا عن الثِّقَلِ الصَّوتي، وذُكِر الظَّرفُ ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، ولم يأتِ النَّظمُ: (قفَّيناه بالرُّسُلِ)؛ لِما

(1) الرازي، التّفسير الكبير: 3/595، ومجموعة من العلماء، المختصر في التفسير، ص: 13.

فيه من مَلْحَظِ البَعْديّة التَّامّة؛ فقد يَتَوَهّمُ مُتَوَهِّمٌ أنَّ التَّقْفِيةَ كانت في زمانِ مُوسَى عليه الصَّلاةُ والسَّلام، وهو غَيرُ مُرادٍ؛ إذِ التَّقفِيَةُ ما كانتْ إلَّا بَعْدَه.

دلالة حَرْفِ ابْتِداءِ الغايَةِ:

اسْتِمْرارُ إرْسالِ الرُّسُلِ دون أدْنى انْقِطاعٍ

أفادَ حرفُ الجرِّ (مِنْ) ابتداءَ الغايَةِ الزَّمانِيَّةِ، أيْ: ابْتُدِئَ إرسالُ الرُّسُلِ في إثْر موسى من غير مُهْلَةٍ ولا انقطاعٍ، فلم يَبْقَ بنو إسرائيلَ مِن دُونِ رَسولٍ مُؤَكِّدٍ لِشَريعَةِ موسى عليه السلام؛ ليَدُلّ ذلك على اسْتِمرارِ نِعْمةِ اللّه فيهم، ومع ذلك فقدْ قابَلوها بالكُفْر والأفعال القَبيحَة، ولو قال: (وقَفَّينا بَعْدَهُ بالرُّسُل) مِنْ غَيْرِ (مِنْ) لما أفاد سِوى أنَّ اللّه أرسلَ الرُّسُلَ بَعدَ موسى مِنْ غَيْرِ بيانٍ لِوُجودِ مُهْلَةٍ أو لا.

دلالة (أل) التَّعْريفِ في الرُّسُل:

التَّعريفُ هنا للجنسِ لا للعَهْد؛ لأنَّهُ لا يُقصَدُ بها رُسُلٌ مَعْهودونَ عندَ المخاطَب؛ لأنَّهم بمَجْموعِهم غيرُ مَعلومينَ عَددًا وعَيْنًا، وهذا "شَأْنُ لَفْظِ الْجِنْسِ الْمُعَرَّفِ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَهْدٌ أَنْ يَدُلَّ عَلَى الاسْتِغْرَاقِ، فلَمَّا كَانَ الاسْتِغْرَاقُ هُنَا مُتَعَذِّرًا دَلَّ عَلَى التَّكْثِيرِ مَجَازًا لِمُشَابِهَةِ الْكَثِيرِ بِجَمِيعِ أَفْرَادِ الْجِنْسِ، كَقَوْلِكَ: لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ فِي الْبَلَدِ لَمْ يَشْهَدِ الْهِلَالَ، إِذَا شَهِدَهُ جَمَاعَاتٌ كَثِيرَةٌ. وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ مَعْنَى الاسْتِغْرَاقِ الْعُرْفِيِّ"[1]؛ فيكونُ المَقصودُ اسْتِغراقَ أفْرادِ الرُّسُلِ في ذلك الزَّمانِ.

دلالة إضافَةِ رُوحٍ لِلْقُدُس:

المُبالَغَةُ في بيانِ قُدْسِيَّةِ جِبْريلَ عليه السلام

إضافةُ رُوح لِلْقُدُس مِنْ قَبيلِ إضافَةِ المَوصوفِ إلى صِفَتِه، أيْ: الرُّوحُ المُقَدَّسَةُ، وفائِدَتُهُ: تَحْقيقُ المُبالَغَةِ مِنْ وَجْهَين؛ أحَدُهُما: وُقوعُ الصِّفَةِ بِصيغَةِ المَصْدَرِ؛ لِتَدُلَّ على المُبالَغَةِ في الوَصْف، فإذا قيل: (رَجُلٌ عَدْلٌ)، فكَأنَّه وُصِف بِجَميعِ جِنْسِ العَدْلِ مُبالَغَةً[2]،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/593.
(2) ابن جنّي، الخصائص: 2/204.

والثّاني: لِزيادَةِ المُبالَغَةِ في المَعْنى؛ فيَكونُ المَوْصوفُ مُخْتَصًّا بالصِّفَةِ بِسَبَبِ الإضافَةِ؛ لِأنَّها على مَعْنى اللّام[1]، فوُصِفَ جِبْرِيلُ بِذَلِكَ تَشْرِيفًا لَهُ وَبَيَانًا لِعُلُوِّ مَرْتَبَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ تَعالَى.

تَسْمِيَةُ جِبْرِيلَ بِرُوحِ القُدُسِ عَلى المَجازِ:

تَنْزِيلُ جِبْرِيلَ في إِحْياءِ القُلوبِ، مَنْزِلَةَ الرُّوحِ في إِحْياءِ الأَبْدانِ

سُمِّيَ جِبْرِيلُ بِرُوحِ القُدُسِ تَشْبِيهًا لَه بالرُّوحِ الّتي هِيَ سَبَبُ حَياةِ الإنسانِ؛ فكَذَلِكَ جِبْرِيلُ عليه السلام سَبَبٌ لِحَياةِ القُلُوبِ بِالعُلُومِ[2]؛ فشُبِّه جِبْرِيلُ بِروحِ الإنسانِ، بِجامِعِ سَبَبِيّةِ الحَياةِ، ثُمّ حُذِفَ المشبَّهُ وصُرِّحَ بالمُشبَّه بِه على سَبيلِ الاسْتِعارَةِ التَّصْرِيحيَّة.

بَلاغَةُ الاسْتِفْهامِ:

بَيانُ الاِسْتِفْهامِ لِدلالَةِ الإِنْكارِ والتَّوْبيخِ والتَّعْجيبِ للتَّقْرِيرِ بِقَصْدِ الارْتِداعِ عَنِ المَعاصي

أفادَ الاسْتِفهامُ في قولِه تَعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾، الإنكارَ والتَّوْبيخَ والتَّعْجيبَ[3]، فالآيَةُ تُنْكِرُ عَلى بَني إسْرائيلَ اتِّباعَهُمْ لِهَوى أَنْفُسِهِمْ، واسْتِكبارَهُم عَنِ الحقِّ؛ فجَمَعَ الاستفهامُ بَيْنَ مَعاني الإنْكارِ والتَّوبيخِ والتَّعجُّبِ من شأنِ بَني إسرائيلَ في تَعامُلِهم مَعَ رُسُلِهِمْ، ومَقْصودُ ذَلكَ حَمْلُهم عَلى الإقرارِ ليَرْتَدِعوا عمَّا هُم فيه من الغِوايَةِ والكِبْرِ[4].

إِيلاءُ حَرْفِ الاسْتِفْهامِ حَرْفَ العَطْفِ:

تَعَدُّدُ أَوْجُهِ الرَّبْطِ بَيْنَ الفاءِ والجُمَلِ المَعْطوفِ عَلَيْها

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾، إمَّا أن تَكونَ عَطَفَتِ الجُمْلَةَ المَذْكورَةَ على أُخْرى مَحْذوفَةٍ بَعْدَ هَمْزَةِ الاسْتِفهام، تَقْديرُها: أَعَصَيْتُموهُمْ فكُلّما جاءَكُمْ رَسولٌ مِنْهم بِما لا تَهْوى أَنْفُسُكُم[5]، وهَذا مَذْهَبُ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/316.
(2) الرازي، التّفسير الكبير: 3/596.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/256، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/482، والنيسابوري، غرائب القرآن: 1/331.
(4) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 1/176.
(5) أبو السعود: إرشاد العقل السليم: 1/127.

الزَّمَخْشريّ[1]، ونُكْتَتُه: تَحريكُ ذِهْنِ المُخاطَب في اسْتِنباطِ المَعاني. وإمَّا أن تكون على التّقديمِ والتّأخيرِ، والأَصْلُ (فَأَكُلَّمَا)، وَقُدِّمَ حرفُ الاستفهام؛ لأنَّ لَه الصَّدارَةَ في الكَلامِ[2]، وهذا مَذهبُ سيبَوَيْهِ، ونُكْتَتُه: تَوبيخُهُم على تَعْقيبِهِم ذلك بهذا، وللتَّعْجيب مِنْ شَأْنِهِم[3]، ولإثارَةِ المُخاطَبِ وتَهْيِئَتِه لاسْتِماعِ ما يرِدُ في الكلامِ؛ لأَنَّه مصدَّرٌ بالإنكارِ على فِعْلٍ متكرِّرٍ واقعٍ منَ المخاطَبِ.

نُكْتَةُ ذِكْرِ ﴿أَفَكُلَّمَا﴾:

تَـكْـرارُ وُقـوعِ الفِعْلِ بِصَيْرورَتِهِ مَنْهَجًا وسَجِيَّةً

أفادَتْ (كُلَّمَا) التَّكرارَ، والمَعْنى: إنَّ فِعْلَهم كَان يَتَكرَّرُ منْهُمْ مِنْ غيرِ انْقطاعٍ بِتكرُّرِ مَجيءِ الرُّسل إلَيْهم، فالاسْتِكْبارُ وما يَنْشَأُ عنه مِنَ القَتْل والتَّكذيبِ هوَ مَنْهجٌ مُتَكرِّرٌ لا يَحيدونَ عَنْهُ، و"سَجِيَّةٌ لَهُمْ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِعَارِضٍ عَرَضَ فِي بَعْضِ الرُّسُلِ وَفِي بَعْضِ الْأَزْمِنَةِ"[4].

بَلاغَةُ حَذْفِ العائِدِ:

بَيانُ اسْتِحْكامِ الـهَـوى في الـنُّـفـوسِ، ولِـلـكَـراهَـةِ اللَّفْظِيّةِ

حُذِفَ العائِدُ في قَوْلِه: ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾، فلمْ يَقُلْ: (بما لا تَهْواه أنفُسُكمْ)؛ لأمْرَيْنِ اثْنَين، أحدُهما مَعْنَويٌّ، والآخَرُ لَفْظيٌّ، فأمَّا المَعْنَويّ؛ فلِيُفيدَ إثباتَ الهَوى لأَنْفُسِهِم على الإطلاق، فكَأَنَّ الهَوى اسْتَحْكَم في أَنْفُسِهِم فصارَ ثابتًا فيها لا يَتَجاوَزُها، إمْعانًا في ذمِّهِم، ولِبَيانِ أَنّ مَنْشَأَ اسْتِكبارِهِمْ هَوى أَنْفُسِهِم، ولا يُتَوَهَّم أنَّهم يَسْتَكْبِرون؛ لأنَّهم يستحقون الاستكبار، وأمَّا اللفْظِيّ "فلطولِ الاسْمِ، أَيْ: بِمَا لَا تَهْوَاهُ"[5]، وطولُ الصِّلَةِ في مقامِ الإيجازِ مَذْمومٌ، واجْتِماعُ أكثرَ مِنْ تَعْليلٍ لُغَوِيٍّ هُوَ في مقامِ المَدحِ والقَبولِ.

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/162.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/443.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/127.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/598.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/24.

سِرُّ العُدولِ عَنِ الضَّميرِ إلى الاِسمِ الظاهِرِ:

التَّنْبيهُ عَلى سَبَبِ الاِسْتِكْبارِ لِلْحَذَرِ مِنَ الوُقوعِ فيه

مُقْتَضى ظاهرِ سياقِ الخِطابِ في قولِه تَعالى: ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾، التَّعْبيرُ بِضَميرِ المخاطَبةِ؛ فكان التقديرُ: (تَهْوَوْنَ)، لكنَّه عَدَلَ عَنْ ضَميرِ المُخاطَبةِ إلى الاسمِ الظَّاهرِ؛ للإشارَةِ إلى عِلِّيَّة المَأخَذ، والسَّبَبِ الذي جَعَلَهُم يَفْعَلون ما يَفْعَلون، فأنْفُسُهم هِيَ الّتي سوَّلَتْ لهمُ التَّكْذيبَ والقَتْلَ، وقادَتْهم إلى هذهِ الأفعالِ القبيحَةِ[1]، كما قالَ تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: 30].

عِلَّةُ الاخْتِلافِ بَيْنَ المُتَقابِلين:

تَصْويرُ قَباحَةِ القَتْلِ كَأنَّهُ واقِعٌ مُشاهَد، وبَيانُ إصْرارِهِمْ عَلَيْه

غايَرَ النَّظْمُ بينَ فِعْلِ التَّكذيبِ إذْ جاءَ ماضيًا، وفعْلِ القَتْلِ إذْ جاءَ مضارعًا في قوله تعالى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾، فجاءَ فعلُ القَتْلِ بصيغَةِ المُضارِعِ؛ لاستِحْضارِ الحالِ الماضيَةِ، وَتَصْويرِ الحالِ حَتَّى كَأَنَّهُ مُلْتَبِسٌ بها[2]، ولبيانِ إصْرارِهِمْ وعَدَمِ نَدَمِهِم؛ فهُمْ مُسْتَمِرُّونَ على ذلك، "فذَكَرَ القتْلَ بلفظِ الاسْتِقبالِ تَنْبيهًا إلى أنَّهم يُزاوِلونَ قَتْلَه، قَدَروا عليْهِ أمْ لم يَقدِروا"[3]، ولِتَناسُبِ رُؤوسِ الآي، ففي تَجانُسِ الفواصِلِ تَأثيرٌ نَفْسِيٌّ عَجيبٌ في قلوبِ السَّامعينَ.

مَعْنى الفاءِ في ﴿فَفَرِيقًا﴾:

تَنَوُّعُ مَعاني الفاءِ بِناءً عَلى تَعَدُّدِ أَوْجُهِ التَّفْسير

حَمَلَ حَرْفُ الفاءِ في قولِه تعالى: ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ أَحَدَ مَعْنَيَيْن، السَّبَبِيَّة، أو التَّفْصيلِ، ومَعْنى السَّبَبِيَّةِ له وَجْهان:

الأوَّلُ: الاسْتِكْبارُ، بِتَرْتيبِ التَّكذيبِ والقَتْلِ عَلى اسْتِكْبارِهِمْ؛ "فَنَشَأَ عَنِ الاسْتِكْبَارِ مُبَادَرَةُ فَرِيقٍ مِنَ الرُّسُلِ بِالتَّكْذِيبِ فَقَطْ، حَيْثُ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى قَتْلِهِ، وفَرِيقٍ بِالْقَتْلِ إِذَا قَدَرُوا عَلَى قَتْلِهِ، وَتَهَيَّأَ لَهُمْ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/482.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/162، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/483.
(3) تفسير الرّاغب: 1/256.

ذَلِكَ، وَيُضَمَّنُ أَنَّ مَنْ قَتَلُوهُ فَقَدْ كَذَّبُوهُ، وَاسْتَغْنَى عَنِ التَّصْرِيحِ بِتَكْذِيبِهِ، لِلْعِلْمِ بِذَلِكَ، فَذَكَرَ أَقْبَحَ أَفْعَالِهِمْ مَعَهُ، وَهُوَ قَتْلُهُ"[1].

الثَّاني: مَجيءُ الرُّسُل، لأنَّه قالَ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾؛ فتَعَلَّق الحُكْمُ -وهُو التَّكذيبُ والقَتلُ- بوَصْفِ الرِّسالَةِ عِنْدَهُمْ؛ "كَأَنَّ وَصْفَ الرِّسالَةِ عِنْدَهُم هُو الذي اقتَضى عِندَهم أحَدَ هذين، حَتَّى خُصَّ المَنْعوتُ بِهِ دونَ سائِرِ النَّاسِ بِأَحَدِ الأَمْرَين، وهذا نِهايةُ الجَهالةِ، حيثُ اسْتَقْبَلوا أشْرَفَ الأصنافِ لأكْرَمِ الأوصافِ بِغايَةِ الاستِخْفافِ"[2].

وأمَّا التَّفْصيلُ[3]؛ فإمّا أنْ يَكون تَفْصيلًا لِمُجْمَلِ قولِه تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾، فتَكونَ الفاءُ عاطِفةً على جُملةِ ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾، ويَكونَ قولُهُ ﴿أَفَكُلَّمَا﴾ مَعَ مَا بَعْدَهُ فَصْلًا بَيْنَهُمَا عَلَى سَبِيلِ الْإِنْكَارِ، فقد جاءَتْهُم الرُّسُلُ تَتْرا وجاءَهُمْ عيسى ابنُ مَرْيَمَ بالبيِّناتِ، ففصّلَ في ما فعلَه بنو إسرائيل بالرُّسُلِ، وإما أنْ تَكونَ تَفْصيلًا لمُجْمَلِ قولِه تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾، كما أشارَ إليهِ ابْنُ عاشور[4]، فتَكونُ الفاءُ تفصيلًا للاسْتِكْبارِ، فكانَ اسْتِكبارُهُم على نَوْعَيْنِ؛ التَّكذيبِ والقَتْلِ[5].

والمَعْنَيان كلاهُما مُحْتَمَلٌ، وتَوَسُّعُ المَعاني مِنْ لَطائفِ مَداخِلِ البَلاغةِ، ولاسِيَّما مع هذه الألْفاظِ المُتَخَيَّرَةِ والمَعاني المُنْتَخَبَةِ، وتَعَلُّقِ اللَّفظِ بِمُناسِبِه.

بَلاغَةُ تَقْديمِ المَفْعولِ بِهِ:

الاهْتِمامُ وتَشْويقُ السّامِعِ إلى مَعْرِفَةِ مَضْمونِ الكَلام

قُدِّمَ المَفْعولُ بِه في قوله تعالى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾؛ لِلاهتِمامِ ولِتَشْويقِ السّامِعِ إلى مَعْرِفةِ ما فَعلَ بَنو إسْرائيلَ بالرُّسُلِ، ولِمُراعاةِ رُؤوسِ الآي، ولا يُفيدُ تَقديمُ المَفعول هنا القَصْرَ، لأنَّه في مَقامِ التَّفصيلِ[6]، وزادَ ابنُ عاشور فائِدَةً أسلوبيَّةً أخرى، وهِيَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/483.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 1/331.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1: 256، والشوكاني، فتح القدير: 1/130، وخان، فتح البيان: 1/219.
(4) التحرير والتنوير: 1/598.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 1/318.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/483، البروسوي، روح البيان: 1/177.

تَفصيلُ المُجمَلِ، فإنَّ كَلِمَةَ فَريقٍ إذا وَردتْ على جِهَةِ تَفْصيلِ مُجْمَلٍ تكونُ في مُقدّم الكَلام غالبًا، "وَهَذَا اسْتِعْمَالٌ عَرَبِيٌّ كَثِيرٌ في لَفْظِ (فَرِيقٍ) وَمَا فِي مَعْنَاهُ، نَحْو (طَائِفَةٍ) إِذَا وَقَعَ مَعْمُولًا لِفِعْلٍ فِي مَقَامِ التَّقْسِيمِ"[1].

سِرُّ تَقْديمِ التَّكذيبِ عَلى القَتْلِ:

مُراعاةُ التَّدرُّجِ في ذِكْرِ القُبْحِ والشَّر

بَدَأَ بِالتَّكْذِيبِ؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَا يَفْعَلُونَهُ مِنَ الشَّرِّ، وَلِأَنَّهُ الْمُشْتَرَكُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ: الْمُكَذَّبِ وَالْمَقْتُولِ[2]؛ فالمَقْتولُ مُكَذَّبٌ كَذلك، ولَولا أنّه مُكَذَّبٌ لَما قَتَلوهُ، كَما أنّه جَرى على طَريقَةِ التَّدَرُّجِ في فِعْلِ القَبيحِ؛ فبَدأ بالأسْفَلِ فالأشَدِّ قبحًا وجُرمًا.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاِسْتِكْبار والتَّكَبُّر:

اختلافُ المَبْنَى يدلُّ على اخْتِلافِ المَعْنى غالبًا، فالمُسْتَكْبِرُ يَعْتَقِدُ أنَّ نَفْسَهُ كَبيرَةٌ تَكَلُّفًا واسْتِشْعارًا في النَّفْس، ولا يَبْلُغُ حَقيقتَه، وهُوَ في الوقتِ نَفْسِهِ يَطلبُ الكِبْرَ، وهُو ليسَ لهُ حَقٌّ بِهِ؛ ولِهذا لمْ يَرِدِ الاسْتِكبارُ في جَميعِ القُرْآنِ إلَّا على الذَّمِّ؛ نحو: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾ [نوح: 7]، وأمَّا المُتَكَبِّرُ فقد وردَ وصفًا للّه تعالى؛ نحو: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: 23]؛ فهو مَحْمُودٌ، ووَرَدَ وَصْفًا للكافرينَ الرَّاغبينَ عن الحقِّ تعنُّتًا وتَكَبُّرًا؛ نحو: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝٢٧﴾ [غافر: 27]؛ فهو مذمومٌ[3].

(لا تَهْوَى) و(تَكْرَهُ):

عبّر بـ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾ ولم يَقل (بما تكرَهُه أنفُسُكُم)؛ لِيُفيدَ أنَّهم مَهْما يأتِهم أمرٌ من رُسُلِهم لا تهواهُ أنفسُهُم، سواءٌ أكانوا يكرَهونَهُ أم لا، فإنَّهم يَستكْبِرون ولا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/598.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/483.
(3) الطحاوي، شرح مشكل الآثار: 14/189، أبو حيّان، البحر المحيط: 1/482.

يُذْعِنون. فقد يَكونُ الأمرُ ممَّا لا يكرَهونَه، ولكنْ يَمْنَعُهُم من فِعْلِه جاهُهُم أو عرَضٌ من الدُّنيا. قال ابنُ عَرَفةَ: "هذا نَهيٌ عليهم، ومبالَغَةٌ في ذَمِّهم؛ لأنَّ ما لا تَهواهُ النّفس أعَمُّ ممّا تَكْرَهُه النّفسُ، والمَعنى: أنَّهم مَهما أتاهُم رَسولٌ من عندِ اللّهِ تعالى بأمرٍ لا يحبُّونَه سواءٌ كانوا يكرهونَهُ أو لا، فإنّهُمْ يَسْتَكبِرون ويَكفُرون بِهِ"[1].

كما أنّ كلمةَ (تَكْرَهُ) فيها من الثِّقَلِ الصّوتِيّ هنا ما لا يَخْفى، وهي وإنْ وَرَدَت في القرآن كما في قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: 216]، فلا يَدلّ ذلك عَلى فَصاحَتِها أينَما وَرَدَتْ، فإنَّ فصاحَةَ الكَلِمَةِ ليْسَتْ وَصْفًا ذاتِيًّا لها، بل العِبْرَةُ بِمَوضِعِها في نَظْمِ الكَلام؛ فقد تَكونُ الكَلِمةُ فَصيحَةً في مَوْضعٍ، وليستَ كذلك في موضِعٍ آخَرَ. فلِكُلّ كلِمَةٍ مَقامٌ مع صاحبتِها ولِفْقِها من الكلماتِ.

(1) تفسير ابن عرفة: 1/365.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الأول، من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة [إشراف مجمع القرآن الكريم،
قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 1 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-52-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 1 : من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-52-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9609262 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»